عام

تجليات التعصب والتسامح في الفكر الإسلامي:

كتاب "وقعة صفين" لنصر ابن مزاحم المنقري

عمار حمودة

باحث تونسي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

في علاقة الذات بالموضوع:

كيف السبيل إلى درس التعصّب والتسامح في تراثنا العربي الإسلامي بحياد تاريخي، وقد طالعتنا فلسفة الأنوار بمبادئها العقلية وتشريعها للتسامح؟ إنها ما تنفك تثقل وعينا المعرفي بمبادئها ومقولاتها، فنرى التراث عبر قنواتها ناقدين ساخطين. هل تَصحّ محاكمة التراث بقوانين التسامح تلك؟ أليس من مبادئ العدالة القانونيّة ألّا يكون تطبيق القانون رجعيّاً؟ ثمّ كيف نتخلّص من وطأة واقعنا الذي بدأ فيه تاريخنا يقفز من المتخيّل الإسلامي إلى ساحات الصراع السياسي؟ هل كانت الفتنة مجرّد حدث تاريخي تحمله الذاكرة الإسلاميّة، فيفسد تلك الصورة الناصعة، لبشر لا يخطئون، وإن أخطؤوا فإنما هم مجتهدون؟ أم هي عيّنة تاريخية يمكن بتشريحها إدراك عللها؟

لماذا نختار هذه العيّنة بالذات؟ هل نتصيّد للتراث أخطاءه سعيًا لتجاوزه؟ أم نحن نسائله وعياً بمشكلاته؟ ألا نتّفق اليوم في القول: إنّ حاضرنا يحتاج إلى إصلاح ودواء؟ وهل يُدْرَكُ الدواء دون إدراك العلل؟ ألا يوجد إجماع إنسانيّ بأنّ التسامح وحده يضمن إنسانيّة الإنسان وأنّ التعصّب منذر بالعنف والهلاك؟

أليس التسامح مسكوناً بمشروع القطيعة مع الدين؟ ألا يظهر التسامح في المجال السياسي أكثر من ظهوره في المجالين الأخلاقي والديني؟[1] ومن هنا تأتي مشروعيّة البحث في الصراعات السياسية باعتبارها أرضيّة التّسامح الحقيقية بدل الاحتماء وراء التأويل النصّي، واتباع الاستدلال سبيلاً للوصول إلى نتائج متضادة، ألم ينشأ خطاب التسامح في سياق الوقوف ضدّ سلطة الكنيسة وتحديداً الكنيسة الكاثوليكية؟[2] فكيف السبيل إلى التجرّد من عقليّة عداء الدين، ومحاولة إظهار السنّة بثوب الأورثوذكسية؟ هل نحن متسامحون أوّلاً في تعاملنا مع تراثنا حين نقارب مفهوم التسامح، وقد صار من السائد القول إنّ "الإسلام مختلط في أذهان الكثيرين برفض الحداثة وحقوق الإنسان".[3]

لماذا نقارب هذه المفاهيم؟ هل نحمل في وعينا غايات علميّة صرفة تحاول البحث عن مدى حضور كلّ مفهوم في سجلّ المسلمين؟ أم أنّ غايات إيديولوجية تدفعنا إلى جلد هذا التراث لننتزع منه اعترافاً بالتسامح، أو وضعه في قفص الاتهام بالتعصّب تشريعاً لإدانته، وبياناً لفضل الخلف على السلف بوعيٍ أو غير وعي، تدفعنا

[1] انظر كتاب "pour une théologie de la tolérance,Michel Barlow, édition desclée de 1999, France, p11"

[2] نفس المرجع، ص12

[3] أركون (محمد) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد،طبعة دار الساقي، لندن، ط1 -1990. ص310.وهذا التعليق هو لمترجم هاشم صالح.

إليه موجة السائد من الدعوات إلى التسامح العالمي في زمن العولمة، وفي خلفياتنا أن تراثنا خال من التسامح وفق الأنموذج المعاصر الذي صاغته فلسفة الأنوار، وترجم مبادئه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؟

ولهذا فمن مقتضيات البحث العلمي التي نروم اتباعها النظر إلى الظاهرتين بحياد قد يبدو مخلاً بهويّتنا وشروط انتمائنا العربي الإسلاميّ، ولكنّه ضروري لفهم المنظومة الداخلية لكلّ فكرة تتنزّل في عصرها، على غير الهيئة التي نتلقّاها في عصرنا. وفيي هذا الفلك المعرفي الذي نشأت ضمنه مفاهيم التعصّب والتسامح نروم دراسة الأنسجة اللغوية التي تشكل بها المعنى وفرز الخيوط التي حيكت بها، حتّى لا تتداخل الأثواب الفكرية التي نلبسها في عصرنا بغزلهم التراثيّ وتتشابك المفاهيم فنلبسهم ثوب وعينا، وقد نزعنا عنهم ثوب وعيهم. فالجابري يتبنى تعريفاً للتسامح بأنه: "عدم الغلو في الدين الواحد وسلوك سبيل اليسر، سبيل "التي هي أحسن" من جهة، واحترام حقّ الأقليات الدينية في ممارسة عقائدها وشعائر دينها دون تضييق أو ضغط... وبالتالي فالتسامح هنا هو التخفيف إلى أقصى حدّ ممكن من الهيمنة المقصودة أو غير المقصودة التي يمارسها مذهب الأغلبية داخل الدين الواحد، ودين الأكثرية داخل المجتمع الواحد.[4]، ويشترط الجابري أن يكون منطلق التّسامح العدلَ لا التساهلَ لأنّه يجعل "المُسَامِحَ في وضعيه أعلى من المسامح له."[5]، وفي ذهن الجابري أنه يصنع من التسامح مضادات حيوية للتطرّف بكل أشكاله، فهو ليس وليد أسباب داخليّة ولا هو بالصناعة الإسلامية الصرفة، بل هو في الوعي الديني ذاته، وهو نتاج "المواقف الفكرية والسلوكية التي تحرّكها المصالح السياسية والاقتصادية ويغذيها التعصّب العرقي."[6]، فالأصولية باعتبارها تجلّيًا معاصرًا للتعصّب نتجت عن حركية تاريخية يحتمي فيها الضعفاء بصور متخيّلة عن الهويّة، حين صار تيّار العولمة يجرف كل المختلفين عنه شرقًا وغربًا ولا يقيم في أطروحاته الاقتصادية سوى نظرة براغماتية، تبحث عن أسواق لسلعها، وتقضي على أشكال الاختلاف والمنافسة الاقتصادية والفكرية.

ولكن هل لعيّنة من التراث أن تصوغ أحكامًا مطلقة عن التعصّب والتسامح؟

من الطبيعي أنّ الأحكام تظلّ مرتبطة بتلك العيّنة المدروسة وهي "كتاب وقعة صفين" لنصر بن مزاحم المنقري. وإذا شئنا أن نستعير من ابن خلدون تصنيفه للحروب بحسب أسبابها اعتبرنا هذه الحرب من النوع

[4] الجابري(محمد عابد)، قضايا في الفكر المعاصر، طبعة مركز دراسات الوحدة العربية، ط2،بيروت، 2003، ص29

[5] نفس المرجع، ص31

[6] المرجع نفسه، ص32

الأول الذي يشن طلبًا للانتقام، تمييزًا عن الأنواع الأخرى القائمة على العدوان أو الجهاد أو حروب الدول مع الخارجين عليها.[7]

- لقد اخترنا عيّنة من التّراث الإسلامي رُفعت فيها سيوف المسلمين بعضهم على بعض، وصار فريق منهم عدوًّا للآخر، ولكنّها في النهاية عيّنة، لا تحمل الحقيقة في بعدها المطلق، بلْ هي زاوية نظر للحرب تقارب الواقع من جهتها وتحمل بين طيّات الخطاب موقف ساردها[8]، وقد تكون وجوه الحقيقة الأخرى غائبة عن النص ولكنّها حاضرة في الواقع، فالكتاب يرصد وقائع الحرب، ولكنّه لا يستطيع النفاذ إلى الفضاءات التي تحتضن الرافضين للحرب والهاربين منها طوعًا أو كراهيّة كالشيوخ والرضّع والنساء، ثالوث الضعف القتالي في ذلك العصر، فالإخراج لعبة الكاتب، ولذلك فالأحكام التي نطلقها على هذه العينة لا تتوجّه للواقع بقدر ما تتوجّه إلى صدى الواقع في كتاب نصر بن مزاحم، إن الأحكام مرتبطة بالنص لا بالواقع، فقد يكون الواقع مختلفا عن النصّ بحكم الدوافع الإيديولوجية أو انتصار الكاتب إلى فريق دون آخر[9]، ويظلّ خطاب المنقري مهما ادعى الحياد والموضوعية زاوية نظر إلى الواقع، قد لا ترصد فيه عين الكاتب وأذنه أشياء غاب ذكرها في الأخبار التي اعتمدها ليؤلّف كتابه، لعلّها ما يقع خارج فضاء الحرب، وهو أمر يحتاج إلى بحث أنثروبولوجي يرى التاريخ في حركة الهامشيين والمستضعفين مثلما يراه التاريخ الرسمي في حركة القادة وسلوك المحاربين.

إن كل عملية بحث في التّسامح تظل خاضعة لمنظور معاصر صار يرى فيه ضرورة للتعايش السلمي بين سكان القرية الكونيّة رغم اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم، بل لا يخفى أن التعصب يصبح هو السبب الرئيسي لاستحضار مفهوم التسامح ومحاولة تأصيله في الثقافة العربية الإسلامية، ولهذا فمن مزالق البحث في هذه المسألة محاولة إسقاط مفاهيم معاصرة للتسامح تبلورت على أيدي فلاسفة الأنوار، وصيغت في نظم قانونية ضمنت لها المَـــأْسَسَةُ وَقُوّةُ الطرف المُطَالِبِ بِهَا صَدى أوسع في الأوساط السياسية والفكرية، ولكي نتجنب هذه المزالق كان من خيارات البحث الاتجاه إلى رصد مفهوم التّعصب والتّسامح في مرجعياته اللغوية القديمة، أي قبل أن تهب رياح التأثر بالدعوات العالمية لحقوق الإنسان، وقبل أن يصير النظر إلى التراث يتّخذ رؤية تشعر بالنقص كلما قاربت مفاهيم التسامح وفتشت عنها زمن اتقاد الحروب، وبروز العصبيات، وتفاقم

[7] انظر، مقدمة ابن خلدون، ص ص149-150

[8] إنّ ما نعتبره وجهة نظر الراوي هو في الحقيقة أقرب إلى المفهوم السردي الذي أقرّه جيرار جينات (gérard genette) حينما تحدّث عن المنظور السردي ويقصد به وجهة نظر الشخصيّة التي توجّه المنظور السردي. انظر gérard genette, figure3, édition céres 1er édition , tunisie, édition céres ,1996.p310.

[9] يبدو جليّا من خلال نقل الوقائع تعاطف المنقري مع عليّ وإن ترجمنا ذلك إلى لغة الفرق الدينيّة قلنا تشيّعه.

الصراعات بين الملل والنحل سعياً إلى الشرعية الدينية والسياسية. وهو ما قاد بعض المفكرين إلى إنكار وجود التسامح في العصور الوسطى، مثل محمد أركون فقد اعتبره من اللاّمفكر فيه فكراً وممارسة، وهو لا يجعل تلك السّمة من خاصيات الفكر الإسلامي فقد حقّ القول على المسيحية وهم لا يُنْكرون، ويُرجع أركون ذلك الافتقار إلى عائق إبستيمولوجي يسميه بالسياج الدوغمائي ومصادرات العقل الأرثوذكسي. ولكن من الطبيعي أن تكون نتيجة البحث إعداماً للتّسامح في التراث العربي الإسلامي مادام مطلب الباحث إيجاد ما يلائم ثوب التّسامح الذي خاطه مسبقًا مقتديًا بنماذج معاصرة للمفهوم، فيصير غياب التسامح ناتجًا عن إسقاط تاريخي سببه مطلب الباحث عن أنموذج لاحق صاغته فلسفة الأنوار وتحوّل إلى مؤسسات تدعو إليه في عصور تختلف تصوراتها وآفاقها الذهنية عن تصورات القدامى، أما إذا قاربنا المفهوم في إطاره التاريخي أي وفق ممكنات الموجود تاريخيًا، لا وفق فرضيات حديثة تمارس الإسقاط على غير عصرها، وتطلب من التاريخ أن يستجيب لما تَطْلُبُهُ وإلَّا صار مُدانًا فإن ذلك سيجنبنا السقوط في مزالق الإيديولوجيا ومجانبة الموضوعية في درس العلوم الإنسانية، ولهذا السبب آثرنا الانطلاق من المعاجم القديمة حتى نضمن مقاربة المفهوم في إطار ممكنات الفهم التاريخي التي نرصدها في الواقع التاريخي والسقف الإبستمولوجي للعينات المدروسة، إننا بهذا المعنى نتبنى طرح الجابري الذي يرى ضرورة تأصيل مفهوم التّسامح في الحضارة العربية والتراث الإسلامي انطلاقًا من "تبيئة المفاهيم الحديثة في ثقافتنا" ويقصد بذلك فهمها داخل سياقاتها التاريخية.

- وتكون هذه التبيئة تجنبًا للقراءة المتحاملة التي تنفي التسامح نفيًا قطعيًا، وهي تستحضر الأنموذج الغربي المعاصر في مقاربتها، أو القراءة التبريرية التي تحاول انتقاء الحجج التاريخية والنصوصية، وهي تظهر الإسلام ديناً متسامحاً، فيه كل المبادئ العالمية المعاصرة لحقوق الإنسان قبل أن يصدر الميثاق العالمي ذاته، هذه القراءة التي تقفز إلى الاستدلال على وجود كل المنجزات العلمية في سيرة السّلف الصالح وفي الخطاب القرآني والحديث النبوي.

- إن آلية البحث التي اخترناها تتجه إلى رصد البنى العميقة، وتشريح الأعصاب التي تشدّ مفهوم التعصب وتؤسس كيانه، أما التّسامح بما هو تساهل فقد حاولنا رصده في ذَرِّيَّتِهِ دون أن نَحُدَّ من قيمته بدعوى أنه لا يتطابق مع تصورات مسبقة ومسقطة وفي النص الجامع بينهما محاولة لفهم الجدل القائم بين المفهومين، عملاً بأحكام اللغة والتعريف بالخُلف، ولهذا قسّمنا العمل إلى مرحلتين متكاملتين:

- أولاً: رصد الحدود اللغوية لكل مفهوم في المعاجم اللغوية القديمة، والقيمة المعجمية ليست غاية في حد ذاتها وإنما بحثًا فيما وراء اللغة من فهم تاريخي يرصد آفاق وعي العربي المسلم للتعصّب والتسامح دون إسقاط.

- ثانيًا: رصد آ ثار تلك المفاهيم في كتاب "وقعة صفّين" لنصر بن مزاحم المنقري.

تحديد لغوي لمفهومي التعصب والتسامح:

- نحاول في هذا المستوى من العمل تحديد مفهومي التعصّب والتسامح من خلال بعض المعاجم القديمة حتى نضمن في هذا المستوى تفكيكاً للعناصر الدلالية التي شكّلت حدود كل مفهوم سعيًا إلى رصدها في وقعة صفين، فتكون الحدود الدلالية مواطن الرصد في المستوى الثاني.

1- التعصب:

- **بالنظر إلى جذر (ع ص ب)، يمكن أن نلاحظ وجود المعاني التالية:**

أ- معنى الائتلاف والوَحدة:

- يقول ابن منظور "وعَصَبَ الشجرة يَعْصِبُهَا عَصْبًا " ضمّ ما تفرَّق منها بحبل[10]" ويقول:"وقد تعصَّبوا عليهم إذا تجمعوا".

- ومن هنا جاء ارتباط مفهوم التعصّب بالعصبية كما تمثَّلها ابن خلدون في مقدمته، والتعصُّب كما يورد ابن منظور في اللسان: "من العصبيّة. والعصبية أن يَدْعُوَ الرجل إلى نُصْرَةِ عَصَبَتِهِ، والتألّبِ معهم، على من يُنَاوِيهم، ظالمين كانوا أو مظلومين. [11] والعصبية والتعصُّب: المحاماة والمدافعة.. وتعصَّبنا له ومعه: نصرناه."[12]

- ولهذا فالعصبية هي التزام بميثاق أخلاقي يؤديه الفرد للمجموعة التي ينتمي إليها لضمان بقائهم وتأمين مصالحهم، سواء عليهم أتّفق ذلك مع الحق أم لم يتفق يتعصّبون، فالحقّ يصاغ هنا وَفق النواميس التي تُؤْمِنُ بها العُصْبَةُ لنفسها لا وفْق ما يُحَقّقُ العدل بين الفرق المتصارعة وقد يكون الزعيم هم الموجه لتلك الخيارات وفق ما يراه.

[10] المصدر نفسه، ص603

[11] ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص606

[12] المصدر نفسه، ج1، ص606

ب- معنى القناعة والرضا بالرأي:

- يقول ابن منظور: "وتَعَصَّبَ بالشيئ واعتصب: تقنَّع به ورَضِيَ."[13] وهو ما يجعل هذا التحديد مرادفًا للدوغمائية باعتبارها "مواقف فكرية يرى أصحابها أنّها لا تقبل النقاش"[14]، ذلك أنَّ القناعة والرضا بالرأي، يعني الانقطاع عن البحث في رأي غيره يُخالفه أو قبول تعديل في المواقف.

ت- معنى الفقر: فالرجل المُعصَّبُ هو الفقير. ولعل الفقر لا يمكن أن يفهم هنا بالمعنى المتداول وإنما بمعنى الحاجة إلى الرّياسة أو توسيع المجال أو الهيمنة. إنّه أقرب إلى معنى الافتقار بمعناه السياسي أو الاقتصادي بحثًا عن المجال والسيادة والمصلحة.

ث- معنى القيادة والسيادة: ويقال للرجل الذي سوَّده قومه، قد عصَّبوه، فهو مُعَصَّبٌ وقد تعصَّبَ."[15]. ومن هنا معنى القيادة والحكم.

ج- معنى الشدَّة: فالأمر العصيب هو الشديد. [16] ولعلّه من هذا المعنى تولَّد الارتباط الوثيق بين التعصّب والعنف.

** وبذلك يتضح من خلال هذا العرض اللغوي أن المقصود بالتعصّب هو الوحدة القائمة على أساس اللّحمة القبلية أو الفكرية، وهو يرتبط بفواعل في صيغة الجمع يتفقون حول مبدأ الحماية الجماعية وجدل نصرة الفرد والمجموعة، فالتعصّب في الأصل فعل جماعي تمارسه عُصْبَةٌ، وَثقت ببعضها والتحمت بفعل روابط القرابة أو النسب أو الحلف أو الدين أو الرأي، حتى صارت في حكم الفاعل الواحد إيماناً بفكرها ودفاعًا عن أرواح منظوريها ومصالحهم. والتعصّب مولّد للعنف الذي لا يظهر بوجهه العدواني الصريح وإنما يتخذ ثَوْبَ شَرْعِيَّةٍ تصوغها الجماعة بالنظر إلى تصوراتها ومصالحها وتتركّز تلك العناصر حول محور يقود العُصْبَةَ نحو تحقيق مصالحها، وهو داخل البناء القبلي شيخ القبيلة، وصار يسمّى في الاصطلاح الإسلامي خليفة أو إمامًا يجمع بين الوظائف الدينية والسياسية ولا يمنعه ذلك من تكليف قادة عسكريين بتحقيق الأهداف التي يطمح إليها صحبة عُصبته، سواء أكانت الحرب ضد عدو خارجي أم اقتتالاً داخلياً بين المسلمين أنفسهم.

---

[13] المصدر نفسه، ج1، ص603

[14] Dictionnaire encyclopédique universel-édition hachette Italie-1996, p .397

[15] المصدر نفسه، ص606

[16] المصدر نفسه، ص605

2- التسامح:

- أما المحاور الدلالية التي يدور في فلكها جذر (س م ح) فهي الآتية:

أ- معنى الجود، يقال " سمح وأسمح إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء."[17]

ب- المسامحة: المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا، وفي الحديث المشهور: "السَّماح رباح أي المساهلة في الأشياء تربح صاحبها. وسمح وتسمّح: فعل شيئًا فسهّل فيه."[18] دلالة على الوظيفة الأخلاقية والاقتصاديّة.

ت- "والمسامحة: المساهلة في الطِّعان والضراب والعدو."[19]

- وهذا المعنى يؤكّده "رَايْنَرْ فُورْسْتْ" في كتابه "التسامح في النزاع" الذي يرى أنّ التسامح يرتبط صميمًا بالنزاع، بل يذهب إلى القول إنّ التسامح ابن النزاع."

ث- ويرتبط مفهوم التسامح بالحق: "وتقول العرب: عليك بالحقِّ، فإنّ فيه لـــــمَـــــسْمَحَاً، أي متسعاً.

ج- وقيل: التسميح، السير السهل.

نستنتج من خلال هذا العرض المعجمي تقابلاً ظاهراً بين مفهوم التعصّب والتسامح، وهو في الحقيقة تقابل بين الشدة والتساهل، وبين الحق في مفهومه الإنساني العادل والحق الذي تصنعه العُصبة لذاتها، وتراه من زاوية مصالحها لا غير. إنه التّقابل بين الجود باعتباره عطاء وتنازلاً طوعيًا عن الملكيّة الفردية تحقيقًا لوجوده، والحرب باعتبارها سلبًا وأخذًا من ملكيّة الآخر تسريعًا بعدمه، وعلى أساس هذه العناصر سنحاول رصد مظاهر التعصب والتسامح في كتاب "وقعة صفين" لنصر بن مزاحم المنقري " ويبدو استعمال "الوَقْعَةِ" من الناحية اللغويّة دالاً على الحرب والقتال، تمييزًا عن الواقعة وهي الدَّاهِيَةُ والنّازلة من صروف الدهر، أو القيامة، فاستعمال "الوَقْعَةِ" تأكيد على أنّ الفعل إنسانيّ على أرض الواقع، أمّا استعمال "الواقعة" فيعبّر عن فعل سماوي تأتيه قوّة غيبيّة، وتبدو أهمية هذا الكتاب في كونه ينقل أطوار حرب، أحرجت الفكر الإسلامي واتصلت بفتنة جعلت دم المسلم يراق بسيف المسلم، وقد توفي المؤلف سنة اثنتي عشر ومئتين هجريًا، كتابه أشبه بفلم وثائقي، ينقل شهاداتٍ وأخبارًا سردها من شهدوا تلك الحرب وسمعوا أقوال المتنازعين

[17] المصدر نفسه، ج2، ص489
[18] المصدر نفسه، ج2، ص489
[19] المصدر نفسه، ج2، ص490

فيها تراسلاً وتفاخراً، وهي حرب دامت "مئة يوم وازدادت عشراً، بلغت فيها الوقائع تسعين وقعة فيما يذكر المؤرخون." ولا يكتفي بنقل الأحداث، بل ينقل الأقوال تراسلاً وخطابة وشعرًا. ولهذا فهو نص جامع لأجناس أدبية مختلفة، لا تتعارض في جوهرها مع كتابة التاريخ في ذلك العصر، وبذلك فالنظر إليه من زاوية حضارية ليس في الحقيقة سوى زاوية ممكنة من زوايا نظر أخرى تتيح لنا التعامل معه، غايتنا رصد تجليات التعصّب والتسامح، انطلاقًا مِمَّا صاغته اللغة من حدود معرفية للمفهومين.

وقسمنا خطة عملنا إلى مرحلتين:

- أما المرحلة الأولى فرصد تجلّيات التعصّب التي تجلت في وقعة صفين كما صوَّرَهَا نصر بن مزاحم المنقري.

- بينما يمثل رصد مظاهر التسامح وما انتهت إليه الوقعة من تحكيم المرحلة الثانية.

ويتجه العمل في المستويين إلى تفكيك بنية كل منظومة انطلاقًا من الأفعال والأقوال والأحوال التي نقلها المنقري، ننزلق فيه شيئًا فشيئًا من فلسفة الفعل إلى فلسفة اللسان على حد عبارة بول ريكور[20]، مع محاولة كشف المحركات الخفية التي تتحكم في هذه المفاهيم وتغذيها، وتجدر الإشارة منذ البداية إلى أن الفصل يبقى منهجيًا بين آليات التعصّب وآليات التسامح لأنهما في الحقيقة يدخلان في علاقات جدل سيحاول البحث بيانها في مرحلة النص الجامع.

* **تفكيك التعصّب:** آثرنا في هذه المرحلة من العمل فهم التعصب باعتباره ائتلافًا لأعصاب تشدّه، هذه الأعصاب المجازية هي السياسة والقبيلة والدين والثقافة ونقوم في هذه المرحلة من العمل بتشريح " التعصّب" وتفكيكه مع الوعي بالصلة القائمة بين تلك الأعصاب المكونة له في عمليات الفعل والبناء.

1) **عصب السياسية:** يقوم الخلاف في هذه الوقعة بين معسكرين، معسكر أهل الشام بقيادة معاوية ومعسكر أهل العراق بقيادة علي بن أبي طالب، وقد تأسس مفهوم التعصّب على وجود أطروحتين تؤمن بكل أطروحة عُصْبَةً سياسية لا تعترف بالعصبة الأخرى، وذلك لأن الأطروحة الأولى ترى أحقية معاوية بالحكم، وبدأ هذا الحق على أنقاض مقتل عثمان، يوم عُلِّق قميصه على منبر مسجد الشام، وخطب معاوية في الناس بأن عليًا قتل خليفتهم عثمان" وهو أمر بقتله وألَّب الناس عليه وآوى قتلته. "[21] وبدأ معاوية الباحث عن منصب

[20] انظر كتابه، صراع التأويلات، ص14، ترجمة منذر عياشي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2005

[21] المنقري (نصر ابن مزاحم)، وقعة صفين، ص137

الخلافة من وراء قميص عثمان يسعى إلى تحقيق حلمه السياسي عن طريق حملة عسكرية بدأت باعتراض سبيل الوالي الجديد الذي أرسل به عليّ إلى الشام، وقيادة حملة عسكرية ثانية ضد علي تأتي في نفس الخط السياسي الذي بدأته عائشة زوجة النبي، صلى الله عليه وسلم، على جَمَلِهَا مع طلحة والزبير وقد صاروا أصحابها بعد أن كانوا صحابةً للرسول الكريم وعلي بن أبي طالب.

أما أطروحة عليّ فكانت الدفاع عن شرعيته في الحكم، فقد ظل عليٌّ ينتظر دوره في الخلافة وقد فَاتَتْهُ الفرصة الأولى والثانية والثالثة، فصار في الرابعة واثقًا مع جماعته من هذا الحق السياسي الذي تصنعه علاقته المتينة بالنبّي الكريم من جهة القرابة والنسب والأسبقية في الإسلام، وكان رَدُّ عليٍّ على معاوية ردَّ الباحث عن توطيد أركان حكمه، وهو أشبه بمرافعة دفاع نفى فيها عليٌّ عن نفسه التّهم الموجهة إليه. ولكن الحرب كانت قضاء محتومًا دفع إليه فريق يؤمن إيمانًا راسخًا بضرورة تولي السلطة بدلاً من عليّ وفق شرعية قميص عثمان، فقد كانت الدماء التي تلطّخه حجّة لإراقة مزيد من الدماء يتوافق في ذلك منطق قانون الجاهلية والإسلام وإن اختلفت التسميات؛ فالثأر والقصاص وجهان للعملة ذاتها.

- ومن وراء الأطروحتين نجد أن التعصّب يقوم على ركيزة أولى هي الصراع على السلطة في زمن لم تكن فيه آليات انتقالها خاضعة للائتلاف قدر خضوعها للاختلاف والخلاف. وهي أزمة بدأت بعد وفاة النبي الكريم، وتواصلت فصولها كُلَّما مات خليفة أو اغتيل، وفصلها الأكثر دموية كان زمن خلافة علي، فقد نازعه فيها معاوية واستطاع أن يظفر أخيرًا بها. وهي نتيجة لعقلية التخاصم على حدِّ عبارة إبراهيم محمود " وهي عقلية لها نسب موغل في القدم، كُلَّمَا تَقَدَّمَ بها الزمن، تنامى رأسمالها، وتراكم ميراثها القديم الذي يساهم في تعزيزها وتقوية سلطانها. "[22] وقد وجدت هذه الرغبة الماكيفيلية في السّلطة ما يغذيها بقوة العصبيّة التي سلف الحديث عنها، أو الدّين الذي يقيم بناءه الخطابي على ثنائية "الكافرين والمؤمنين والمنافقين والصادقين وأهل الجنة وأهل النار والتقاة والعصاة"[23]، وينشأ هذا التعصّب، وفق التحليل النفسي، من "ترافق الشعور بالقدرة الكلية مع حماس نرجسي وتمجيد لفكرة الانتماء إلى هذه الجماعة ممن اصطفاهم الأزل أو التاريخ."[24] "وهي منظومة ذهانية... توجّه العدوانية نحو عدوّ... ويجد الأمن... في المنظومة التعصّبية التي يوظفها اعتقادًا."[25]

[22] ابراهيم محمود، الفتنة المقدسة، ص59، طبعة كتب رياض الريس، بيروت، ط1، 1999

[23] المرجع نفسه، ص59

[24] كتاب جماعي، سيكولوجية التعصب، ص10.(دار الساقي، لندن، ط1، 1990.)

[25] المرجع نفسه، ص10

- ويفرق "بولتورير"بين المتعصب الأصليي – العاصب- والمتعصّب المنقاد، فالأول بيده الأمر والسلطان ((autorité) الذي يسمح له بأن يعطي لجماعته (جحافل المتعصبين المنقادين) الإذن بالتغلّب على النواهي المفروضة من الأنا الأعلى".[26]

2) **عصب القبلية:** قد يبدو لكثير من القراءات التي ترى في الإسلام ثورة على الجاهلية أن ذلك أدّى إلى تفكيك البنى الاجتماعية التي قام عليها المجتمع الجاهلي القائم على سلطة القبيلة ومحرّك العصبية، ولكن هذه الحقيقة تظل نسبية لأن الأصوات القبلية كانت محركاً أساسيًا لحرب صفين، استفاقت بها الخلافات القديمة بين فرعي قريش بني هاشم وبني سفيان، ولعل الجابري قد فصّل القول في العقل السياسي العربي حين تحدث عن القبيلة محركاً للفكر السياسي العربي، ولكن الذي يعنينا من هذا الأثر هو علاقة العصبية القبلية بالتعصّب، فلقد كشفت أحداث وقعة صفين، ما لهذه العصبية من أثر بدت فيه الزعامة "السفيانية"[27] القادمة من الشام، برأس واحد خير من يضمن لها النصرة والغلبة، بينما ظل المعسكر الهاشمي، مزيجًا من القبائل التي تحرّكها رؤوس كثيرة أدت في النهاية إلى ضعفه وفشله. فالتعصّب يصير أقوى كلما كانت الأجزاء المكونة للعُصْبَة الواحدة مؤتلفة حول رئيس واحد يعود إليه النظر في القرارات المَصِيرِيَّةِ التي تهمُّ الجماعة، وهو ما كان أقوى في جيش معاوية. فقد ظلّت شوكة عمرو ابن العاص على قوتها مرتبطة بقوة القرار السياسي الذي كان يديره معاوية. أما في الجيش الآخر فقد كان الأشعث والأشتر - وكلاهما له وزنه العسكري- قد أوقعا عليًّاً في ارتباك المواقف وجعلا عَصَبِيَّتَهُ تَضْعُفُ، فقد اختلف القائدان حول الاحتكام للقرآن بعد رفع المصاحف على الأسنّة وفي الوقت الذي مال فيه الأشتر إلى القتال وحسم النزاع عسكرياً _وقد كان واثقاً من ذلك_ أصرّ الأشعث على إيقاف الحرب فكان له ما أراد رغم معارضة الأشعث وعليّ، وصار قراره يمنحه السيادة بدل عليّ. وبذلك فقوَّةُ العَصَبِيَّةِ تزيد عود التعصّب صلابةَ وتُغَذِّيه، وضُعف العصبية يؤدي إلى التّسامح وتغليب لغة الحوار، وضعف عصب القبيلة عند علّي أدّى إلى هزيمته السياسية.

3) **عصب الدين والصراع حول تأويله:** إذا كانت الوظيفة الأصليّة للدين حسب التصوّر الظاهراتي "طرد الخوف، ومصالحة الإنسان مع القدر القاسي، والتعويض عن القلق الذي تجعله غريزة الموت عضالا"[28]، فإنّ السؤال يظلّ ملحّاً حول كيفيّة توظيف الدين ليخرج من طور طرد الخوف إلى طور طرد الآخر من سياج الإيمان عبر صناعة التعصّب وتشريعه، وتحويل المُصالحة مع القدر إلى خلاف مع الآخر المختلف.

---

[26] المرجع نفسه، ص11

[27] نسبة إلى أبي سفيان، ولا يخفى أنّه كان من ألدّ أعدائه، ولم يدخل الإسلام إلاّ زمن فتح مكّة.

[28] بول ريكور، صراع التأويلات، ص ص 376-377. ترجمة منذر عياشي، طبعة دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2005

- لقد دارت الوَقْعَةُ حول محور الحقّ والباطل ورأى كل فريق بعين الثقة أنّه صاحب الحق الإلهي، وأن الفريق الآخر واقع في الكفر والظلم والبغي، ومن أقوال الفريقين المتنازعين يمكن أن نرصد كثيرًا من الشواهد التي تؤكد أن محرّك التعصب هو الاختلاف في التأويل الديني، وبذلك فالقرآن والسنة لم يكونا عنصري حسم بقدر ما كانا عنصري تغذية للتعصّب، فكل فريق يرى رأياً قطعياً بالحق ولا يتزحزح عنه، فهذا فتى من جيش معاوية يلعن عليّاً، ويقول لهاشم بن عتبة وهو من أنصار عليّ "فإنّي أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلّي كما ذكر لي وأنّكم لا تصلّون وأقاتلكم أنّ صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم وازرتموه على قتله."[29]

- تأسس التعصّب على أساس تمسّك كل فريق بكونه على حقّ، ولا ريب أن ذلك احتاج إلى نسق حجاجي يعوّل كثيراً على المرجع الديني باعتباره المؤسس للشرعية المقدسة والحديث النبوي، فقد عجّت الخطب الواردة في كتاب "وقعة صفّين" بمثل هذه الشواهد، ونضرب لذلك مثلاً من الفريقين: فمن أقوال علي في خطبه يجمع أنصاره ويحفّزهم على قتال معاوية وأتباعه: "عليكم بتقوى الله وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه، من المنتحلين المدعين المقابلين إلينا يتفضّلون بفضلنا، ويُجَاحِدُونَا أَمْرَنَا ويُنَازِعُونَا حقَّنا، ويدافعون عنه، فقد ذاقوا وبال ما اجْتَرَحُوا فسوف يلقون غيًّا، ألا إنَّه قد قعد عن نصرتي منكم رجال فأنا عليهم عاتب زارٍ. فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتَّى يُعْتِبُوا، لِيُعْرف بذلك حزب الله عند الفرقة."[30] ومن اليسير فهم الربط الذي يقيمه علي بين طاعته وطاعة الله، ويتحوَّل بفعل الخطاب إلى ذات تلعب الدور الإلهي في تحديد منازل الناس بين الجنة والجحيم، وتمارس العنف الرمزي[31] بالهجر وإسماع المتخاذلين عن الحرب ما يكرهون ليكونوا أعوانه في الحرب. فالحرب تُدَارُ بِثَوْبٍ مقدس اسمه الجهاد.

- أما معاوية وعمرو فقد خاطبا أهل المدينة بقولهما: "أمّا بعد فإنّه مهما غابت عنّا من الأمور فلن يغيب عنّا أنّ عليّاً قتل عثمان. والدّليل على ذلك مكان قتله منه. وإنّما نطلب بدمه حتّى يدفعوا إلينا فنقتلهم بكتاب الله."[32] فالقتال ضدّ جيش علي تطبيق لشرع الله كما يصوره معسكر معاوية، وقصاص أقرّه الله في القرآن.

- ولم يكتف الفريقان بمجرد تبرير الحرب بالمقدس الديني وإنما صار الخطاب الديني فاتحة الحرب، فباسم الله تراق الدماء، وباسمه يمتلئ قلب المقاتل وثوقًا من أنه على حقّ وأن أعداءه على باطل، وتلك ذروة التعصّب.

---

[29] نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، ص354

[30] المنقري (نصر ابن مزاحم)، وقعة صفين، ص4

[31] لفهم مصطلح العنف الرمزي انظر، بيار بورديو، العنف الرمزي، ترجمة نظير جاهل، طبعة المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء،ط1، 1994

[32] المرجع نفسه، ص63

- يقول علي في بداية كلّ حرب: "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاّ الله، والله أكبر يا الله، يا أحد يا صمد، يا ربّ محمد، باسم الله الرحمن الرحيم، لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، ويقرأ الفاتحة، ويدعو بقول: اللهم كفَّ عنَّا بأس الظالمين..."[33]

- ولم يكتف علي بمجرد الاستعانة بكتاب الله وسنته، بل وظّف كل الوسائل ليرفع من درجة القداسة الروحية التي طبع بها حربه، يقول المنقري: "فقد ركب عليّ عليه السلام فرسه الذي كان لرسول الله، وكان يقال له "المرتجز" ثم تقدم أمام الصفوف ثم قال: بل البَغْلَةَ بل البَغْلَةَ. فَقُدِّمَتْ له بغلة رسول الله صلى الله عليه "الشهباءُ" فركبها عليه السلام ثم تعصّب بعمامة رسول الله السوداء ثم نادى: أيها الناس، من يشر نفسه لله يربح..."[34]، إن رَكُوبَ عَلِيّ وعِمَامَتَهُ الموروثتين عن النبي الكريم، تعنيان سيميولوجيا أحقّيته بإرث حكمه في المسلمين، فهذه العناصر ترفع درجة القداسة عند أنصاره، وتقوي تعصّبهم لرأيهم. وهنا نفهم التقابل بين هذه الحركة الرمزيّة وحركة القميص المعلّق على منبر الشام تحْمِيسًا دينيًّا للمقاتلين. فيكون الصّراع بين القميص والعمامة صراعًا رمزيّاً على الشرعيّة.

فالدين بجميع وسائله صار يَعْصِبُ الجماعة فيجمعها، ويَعْصِمُهَا اعتقادًا لتصير حاملة لرايات الحق كما تتصوره ولو كان ذلك مغالطة، قال رجل اسمه أبو اليقظان - وفي الاسم أكثر من دلالة رمزيّة - لعمار بن ياسر " إني خرجت من أهلي مستبصرًا في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنّهم على الباطل، فما زال على ذلك مستبصرًا حتى كان ليلتي هذه صَبَاحَ يَوْمِنَا هذا، فتقدّم مُنَادِينَا، فشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثم أقيمت الصّلاة فصلينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتابًا واحداً ورسولنا واحد، فأدركني الشك في ليلتي هذه."[35] لعلَّه الشك المنهجي الذي يرفع عن الأعين غشاوة الدغمائية فيريها ما يختفي وراء الشعارات الدينية من أطماع سياسيّة لينشأ التسامح بديلاً من التعصّب. ولكنّه لا يخرج عن كونه تسامح الغالب مع المغلوب.

إن الشك الذي انتاب هذا الرجل، لهو الشك الذي يفكّك بنية الخطاب السياسي المُتَدَثِّرِ بعباءة الدين، فالصراع على السلطة يَظَلُّ الحقيقة الجوهرية التي تحرّك الأهواء نحو الحرب وتقوي العصبيّة، وهي تجد في الدين طاقة تُزَوِّدُ تلك العصبية بشحنة يستعملها المتعصب الأصلي العاصب من أصحاب المصالح السياسية

[33] المرجع نفسه، ص230
[34] المرجع نفسه، ص 403
[35] المرجع نفسه ص321

للتأثير في المتعصّب المنقاد من العامّة، حتّى تكون وقود حرب ظاهرها مقدس سماوي وباطنها دنيوي. إنّ الدين بهذا المعنى عدّة حربية كالدروع والسيوف والرماح يستعملها المقاتل ليهزم خصمه ويحقّق نصره.

ولم تكن صدمة الشك التي أصابت هذا الرجل هي الوحيدة في حرب صفين، ففي قتال يبدو حمّلاً لدلالات رمزيّة تختزل الفتنة في مبارزة، كاد الأخ يقتل أخاه، وكان كل واحد منهما في صف جيش من الجيوش المتقاتلة، "قال عمر: وخرج رجل يسأل المبارزة، من أهل الشام فنادى: من يبارز؟ - وهو بين الصَّفَّيْنِ - فخرج إليه رجل من أهل العراق فاقتتلا بين الصفين قتالاً شديدًا، ثم إن العراقيّ اعتنقه فوقعا جميعاً تحت قوائم فرسيهما، فجلس على صدره وكشف المِغْفَرَ عنه يريد ذبحه، فلمّا رآه عرفه فإذا هو أخوه لأبيه وأمّه. فصاح به أصحاب عليّ: أجهز على الرجل. فقال إنه أخي. قالوا فاتركه. قال: لا، حتى يأذن لي أمير المؤمنين. فأُخْبِرَ عَلِيٌّ بذلك، فأرسل إليه: دَعْهُ، فَتَرَكَهُ، فقام فعاد إلى صفّ معاوية."[36]

لقد وصل الأمر بالتعصّب أن صار وسيلة تفكك الخلايا الصغرى التي قام عليها، فهو في الوقت الذي يتغذى فيه على الحميّة القبلية أو الدينية يفككها من حيث أراد تمتينها. إنه حرجٌ أصاب الضمير الإسلامي فهذه الحكاية التي تحمل دلالات رمزية صارت تكشف الجراح التي أصابت الجسد الإسلامي الواحد، وقسّمته إلى فرق صار الحوار بينها يدور بحد السيف، بل صار الصراع على الحق يصنع تلّ الجماجم، فهذا المنقري يحدثنا عن تل بصفين تُلْقَى عليه جماجم الرجال، وكان يدعى تل الجماجم، فالنتيجة الحتمية للتعصّب هي صناعة الموت. والحرب كالنار تلتهم الأخضر واليابس حتى تَخْمُدَ حين لا تجد أمامها ما تلتهمه، وكذا التعصّب حين يصل حدّه الأقصى ينحدر نحو الضدِّ، ويصير التسامح في هذه الحالة حتمية تقتضيها الضرورة وإكراهًا تمارسه قسوة الحرب على أجساد المقاتلين وأنفسهم، فالمشاهد الدّموية توقظ في الأنفس المهتاجة والمسكونة بالانفعال بريقًا من عقل، تتداعى فيه الأفعال العدوانية، وتُشْبِعُ الرَّغْبَةَ في القَتْلِ حَدَّ التُّخْمَةِ، فَتَصِيرُ شَهْوَةُ القَتْلِ التي يصنعها التعصّب تثير الاشمئزاز وتحمل النفس عن الانقطاع، ويصير المقاتلون كالأطفال يستنفدون كل طاقاتهم بالأعمال العدوانية الممكنة، ففي ليلة الهرير " تمادى الناس في القتال فاضطربوا بالسيوف حتى تعطّفت وصارت كالمناجل، وتطاعنوا بالرماح حتى تكسَّرت وتناثرت أسنَّتُها ثم جَثَوْا على الرُّكُباتِ فتحاثوا بالتراب، يَحْثُو بَعْضُهُمْ في وجوه بعض التُّراب، ثم تعانقوا وتكادموا بالأفواه، وترامو بالصخر والحجارة."[37] أليس التعصّب بهذه الصورة شكلاً من أشكال الطفولة البشرية العابثة؟

[36] المرجع نفسه، ص ص271-272

[37] المرجع نفسه، ص304

ومقابل ذلك يقع سلب صفة الإسلام والحق من الفريق المقابل في اتهامات تتراوح بين العتاب في حدها الأدنى والتكفير في حدها الأقصى يقول المنقري: " فقيل لعلي حين أراد أن يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام: أتقرُّ أنَّهم مؤمنون مسلمون فقال علي: ما أقرُّ لمعاوية ولا لأصحابه أنّهم مؤمنون ولا مسلمون، ولكن يكتب معاوية ما شاء، ويُقِرُّ بما شاء لنفسه وأصحابه."[38]

ولعلّ اعتراف عمرو بن العاص هو الذي ينزع القشر الديني عن التعصّب، ويكشف العلَّة الحقيقية المحرّكة للتعصب بقوله: " أولا تعلمون أن صلاتنا وصلاتهم، وصيامنا وصيامهم، وحجَّنا وحجّهم، وقبلتنا وقبلتهم ودينا ودينهم واحد، ولكنَّ الأهواء مشتّتة."[39]

ليس ذلك فحسب بل كان للحديث النبوي دور مركزي في تحديد ثنائية الكفر والإيمان التي تحمل وجهاً آخر لها، هي ثنائية الولاء والقتال، فقد قال عمّار بن ياسر لعمرو بن العاص: "أيها الأبتر، ألست تعلم أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي: " من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه."[40] هذا الحديث الكثيف في دلالاته الذي سيصنع العصبية الشّيعية لاحقًا.

ونقل المنقري هذا الحديث، الذي يكفّر فيه معاوية: "عن جعفر الأحمر، عن ليث، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "يموت معاوية على غير الإسلام."[41]

لقد كان سلاح التكفير الديني خير وسيلة لإظهار الخصم في صورة المارق على الدين لاستباحة قتاله وقتله، وفي الوقت الذي يعتقد فيه كل فريق أنّه يقيم حدود الله نجده يضيع طقوسه وراء الاندفاع المسعور إلى الحرب، فحين احتدم القتال في صفين "مرّت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيهن إلا تكبيرًا."[42]

4) عصب الثقافة: شعر الحماسة والخطابة:

أ- **شعر الحماسة:** كان حضور الشعر الحماسي في وقعة صفين كثيفاً، فلو جمعنا أشعار صفين لكونا ديواناً، وللحماسة أثر كبير في تقوية التعصّب فهي الأوتاد الثقافية التي تشدُّه، تحمِّس الأنفس على القتال، وتذكي نار القيم في ذاتها، فيكون إيقاع الكلام على وقع الحسام. وبقاء الشعر عنصرًا مؤثرًا في الحروب يكشف بقاء

[38] المرجع نفسه، ص 509
[39] المرجع نفسه، ص 317
[40] المرجع نفسه، ص339
[41] المرجع نفسه، ص217
[42] المرجع نفسه، ص479

بنى ذهنية من العصر الجاهلي لا يزال العربي يجد فيها الوسيلة الأمثل للتأثير في الأنفس وتحميس المقاتلين، ولهذا فمن الإجحاف إهمال الدّور الذي تلعبه الأشعار في تقوية التعصّب وفتح واجهة أخرى للقتال بالكلام. وقد كانت الأطراف المتقابلة في الحرب على وعي بأهمية الدور الذي يلعبه شعر الحماسة في الحرب، إنه أشبه بالحرب الإعلامية كما هي في عصرنا. ولهذا فقد كان السّاسة في ذلك العصر، يهتمّون بالشعراء ويقدّرونهم حقّ قدرهم، فحين سمع معاوية قصيدة خفاف، "ذعر من قوله، وقال حابس: أيّها الأمير لقد أسمعني شعرًا غيّر به حالي في عثمان، وعظّم به عليّاً عندي."[43] ولمّا سمع قصيدته "انكسر معاوية وقال: يا حابس، إنّي لا أظن هذا إلاّ عيناً لعليّ، أخرجه عنك لا يفسدْ أهل الشام."[44] وخشية معاوية في محلّها لأن للشاعر قدرة على تغيير الرأي العام وتأليب العامّة ضدّ طرف من أطراف النزاع.

ب- **الخطابة:** أما العنصر الثاني الذي شكّل عَصَبَ الثقافة فقد قام على الخطابة، فقد كانت وسيلة الزعماء للتأثير في الناس وكسب نصرتهم. وقد قامت الخطب على أساس حجاجي يسعى فيه كل طرف إلى تأييد أطروحته والردّ على اتهامات العدوّ بالحجة والبرهان، ولكن انفتاح أنساق الحجاج وفق منطق الجدل، لم يمنع من ثبات كل أطروحة ويقينها بأنّ تمتلك الحق المقدّس الذي لا يقبل الطعن. فالانفتاح الخطابي بين الطرفين لم يمنع الانغلاق الفكري. وتختلف الخطب باختلاف المخاطب، فهي حين توجّه للأنصار تكون تحميسًا لهم وشحذًا للهمم، ولكنّها حين تتوجّه للأعداء تكون جدلاً، ودعوة إلى "الحقّ" وفق الفهم الذاتيّ.

5) **عصب الحرب:** تعتبر الحرب النتيجة الطبيعية للتعصّب، فالإيمان الوثوقي بأن كل فريق يمتلك الحقيقة يجعل الحرب تعوّض الحوار والجدل حول المسائل التي تثير الخلاف.

وفي وقعة صفين تجلت الحرب في صور مختلفة:

صراع جيوش تأتلف بحسب القادة في قطبين، أتباع علي من جهة وأتباع معاوية من جهة ثانية، ولكن تفكيك بنية التعصّب العسكري يجعل الجيوش مزيجًا من القبائل التي كانت تضمها عصبية على أساس الدم أو النسب أو الولاء أو الأحلاف. وقد كان لكل فريق قادته الذين استطاعوا أن يُقَوُّوا التعصّب مثلما ساهموا في إضعافه، فقد كشفت الوقعة أن وحدة القائد كانت عاملاً مُهمًّا لنجاح العصبية وتقوية التعصّب، ونضرب مثلاً عمرو بن العاص الذي كان العقل المدبّر للحرب وبفضله نجحت حملات معاوية، أما انقسام جيش علي

[43] المرجع نفسه، ص66
[44] المرجع نفسه، ص68

واختلاف مشاربه فقد أدَّى إلى تفكيك العصبية، واضطراب المواقف، فتوالد من رحمه عداء الخوارج وقد انتهى به الأمر إلى أن يكون سيف الحسم في اغتيال علي.

ولا تعني عصبيّة الحرب أنها تقوم على ذات القائد الأقوى بل على ذات القائد الأدهى، فحين طلب علي المواجهة المباشرة بينه وبين معاوية، تخاذل معاوية ورفض المواجهة لعلمه بالقدرة القتالية التي يتمتع بها علي، ونجاح معاوية في حربه لم يكن لأن جيشه هو الأقوى فقد شارف أنصار عليّ على النصر، ولكن قوَّة التعصب يصنعها ائتلاف المحاربين تحت راية واحدة وقرار موحّد والقدرة على الاستجابة لمصالح الأطراف المؤتلفة داخل المجموعة الواحدة وتفادي التناقضات الداخلية بينها.

فيظهر من خلال تفكيك بنية التعصّب أن الأعصاب التي تلائم بينها وتشدُّها تظل مختلفة ولكنها متكاملة، ولهذا فإن تفكيك التعصّب في عناصره يهدف إلى فهم أعمق لظاهرة أراقت كثيرًا من الدماء، وحولت لغة الكلام إلى لغة حسام. ولكنها استطاعت أن تكون عامل توحيد لبناء منظومة سياسية وفكرية تحافظ على مصالح مجموعة بشرية في إطار منطق الصراع على البقاء.

آليات التسامح:

نحاول في هذا القسم بيان الآليات التي تحقّق التسامح، وهي:

1) **الحوار يصنع التسامح:** شهدت وقعة صفين حرباً قامت بين جيش علي وجيش معاوية، ولكن الناظر إلى هذه الحرب يرى أنها لم تكن غاية في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة للوصول إلى تحقيق غايات سياسية، يمكن حصرها في رغبة رجلين في نيل السلطة، وإذا وسعنا دائرة المصلحة وجدنا أن من أسباب وقوف أطراف وراء كل قائد الحفاظ على مصالحها، أو اعتبار أن الدفاع عن القائد ورايته دفاع عن الدين وحرب ضد أعدائه الذين خرجوا عن حدوده، ولا يعني ذلك انفصال تلك الغايات، فقد يكون القتال لاجتماع سببين أو أكثر. ومادامت الغايات بهذا الجلاء فإن الحرب هي وسيلة من ضمن وسائل أخرى اعتمدتها الأطراف المتنازعة لتحقيق أهدافها ومقاصدها.

ومن الوسائل التي أظهرت وجه التسامح، وحاولت تفكيك عناصر التعصّب، وضرب الأسس التي قام عليها:

2) **التسامح بالحياد:** وجود فريق اختار الحياد بدل الانتصار لفريق على حساب الآخر، ونضرب مثلاً أبا موسى الأشعري، وقد وجد هذا الفريق في الخطاب الديني ما يبرر حياده، فهذا "سعد بن أبي وقاص قد

اعتزل عليًّا ومعاوية " ينصح ابنه عمر بقوله "مهلاً يا عمر، إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يكون من بعدي فتنة خير الناس فيها الخفي التقيُّ"[45] ولعلّه مجرّد حياد نصّي صنعته رواية رسمية تبرئ الأشعري وتظهره بثوب البريء المنخدع فيما يصعب أن يصدّقه العقل.[46]

3) **التساهل بالحوار:** وذلك بوجود وساطات سعت للصلح بين الفريقين، فلم تنقطع الرسل بين علي ومعاوية، وقد لعب القُرَّاءُ دورًا مهمًا في تقريب وجهات النظر وكَفِّ أذى الحرب عن المعسكرين. وبذلك صار الترسل من علامات التسامح، لأنه يعتمد لغة الحوار وينزع إلى الحجاج من أجل إقناع الخصم بأطروحة غير التي يتبنّاها، وقد قادت بعض المراسلات إلى إيقاف الحرب جزئياً أو كليًا، وأُجِّلَتْ الحرب أكثر من مرّة، فلم تكن لغة السيوف هي الوحيدة التي تداولها الفريقان فيما بينهما.

4) **التساهل في التأويل والتناهي عن القتال:** فقد "اقتتل الناس ذا الحجة كُلَّهُ، فلمَّا مضى ذو الحجة تداعى الناس أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضي المحرم، لعل الله أن يجزي صلحًا واجتماعًا. فكفّ الناس بعضهم عن بعض."[47] وبذلك فالخطاب الديني وسيلة مزدوجة به تُدَقُّ طبول الحرب المقدسة وبفضله ينتشر السلم بين المتحاربين. "فبقدر ما يزرع الدين الثقة والطمأنينة والأخلاق الحميدة في النفوس يمكن أن يزرع بذور العنف والشقاق وكره الآخر والحروب المذهبية، بمعنى آخر إنه سلاح ذو حدّين."[48]

ولقد أبدى فريق من المسلمين وعيهم بأن الأمر لا يعدو أن يكون صراعًا على التأويل:

فهذا عمرو بن العاص يعترف بأن الأهواء هي التي تحرك التعصّب والحرب، وأن الحقيقة تكمن في إسلام الفريقين المتنازعين، فينأى بمقاربته عن التكفير ويجسد الصِّراع دُونَ حُجُبٍ إذ يقول: "أولا تعلمون أن صَلَاتَنَا وَصَلَاتَهُمْ، وصيامنا وصيامهم، وحجّنا وحجّهم، وقبلتنا وقبلتهم وديننا ودينهم واحد، ولكنّ الأهواء مشتتة."[49]، وهذا الاعتراف الذي ينزع القداسة عن المتحاربين من شأنه أن يرفع عن الأعين غشاوة الاعتقاد بأنه يحارب باسم الله وبامتلاك الحقيقة الإلهية المطلقة، وإنما هو يحارب أخاه المسلم.

---

[45] المرجع نفسه ص538

46 في القراءة التي قدمتها ناجية الوريمي بوعجيلة ترى أنّ أبا موسى متورّط في التآمر ضدّ عليّ، وما مسرحيّة التحكيم سوى إخراج فنّي يبرّئه من تهمة التآمر على عليّ، ويجعله ضحيّة مؤامرة قد لا تنطلي على الأطفال وقد استندت إلى كثير من الحجج التي تدين أبا موسى وتؤكد تورّطه في التآمر مع معاوية ضدّ عليّ.انظر كتابها: "الإسلام الخارجي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2006، ص ص79-99

[47] المرجع نفسه، ص196

[48] هاشم صالح، الإسلام والانغلاق اللاهوتي، طبعة دار الطليعة بيروت ط1، 2010

[49] المرجع نفسه، ص317

وفي الجيش الآخر نجد عمار بن ياسر ينشد شعرا يعترف فيه بأصل النزاع على التأويل:

نحن ضربناكم على تنزيله ** فاليوم نضربكم على تأويله.**

ومادام الأمر تأويلاً، فقد صار القتال بشريًا قابلاً للنقاش والتعديل، وليس خطابًا سماويًا يقف فيه كل جيش وراء عباءة الإسلام الصحيح ولسان حاله يقول: "الله في جيشي، يقاتل الشيطان في جيشكم أيها الكافرون."

أ- **التسامح فعل أخلاقي:**

فحادثة الماء[50] التي تروي قصة استيلاء جيش علي عليه بعد أن كان في يد جيش معاوية، وسماحِه رغم ذلك لأعدائه بالوِرْدِ من بعده. فأخلاق عليّ التي تعتبر سببًا من أسباب الكاريزما الشيعية التي نشأت حوله من شأنها أن تضعف بنى التعصُّب وتهدّ أركانها وقد تكون الرواية بدورها صناعة لمفهوم الإمام.

ب- **التسامح من أجل الوجود:** فالتعصب كما سلف عليه الذكر وقود الحرب والقتال في وقعة صفين، والتسامح قيمة تقف فيصلاً بين الوجود والعدم فالذي أدَّى إلى الكف عن القتال لم يكن رفع المصاحف على الأسنَّة كما ساد في كثير من الروايات فرفع المصاحف كان مجرّد وسيلة، فالمصاحف لم توقف الحرب وهي في صدور المقاتلين، فكيف بها توقف الحرب حين ترفع على الأسنّة التي تقطر دما؟ إنّه السبب الوجودي الذي تجلى في إيفاد معاوية أخاه "عتبة" إلى الأشعث يدعوه إلى "البَقِيَّةَ"، يعنى الإبقاء، والعرب تقول للعدو إذا غَلَبَ "البَقِيَّةَ أي أبْقُوا علينا ولا تستأصلونا."[51]

وقد خطب الأشعث ليلة الهرير: "فو الله لقد بلغت من السنّ ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قطُّ. ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إنّا إن نحن توافقنا غدًا فإنّه لفناء العرب وضيعة الحرمات أما والله ما أقول هذه المقالة جزعًا من الحتف، ولكنّي رجل مسنّ أخاف على النساء والذراري غدًا إذا فنينا."[52]

ولم يكن هذا الطلب مجرّد مناورة يقوم بها معاوية فقد تأكّدت هذه الحقيقة من خلال وقائع المعركة، فبعد ليلة الهرير الدامية، "قام الطفيل بن أدهم حيال عليّ، وقام أبو شُريح الجذامي حيال الميمنة، وقام ورقاء بن

[50] فبعد أن استولى جيش علّي على الشريعة، قال أصحابه: "والله لا نسقيهم، فأرسل إليهم علي: خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم."، المرجع نفسه، ص162

[51] المرجع نفسه، ص ص409-410

[52] المرجع نفسه، ص ص480-481

المعمّر حيال الميسرة ثم نادوا: يا معشر العرب، اللهَ اللهَ في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم."[53]

لقد كانت ذروة التعصّب حدّاً انقلبت به الأشياء إلى الضد، فصوت العقل الذي غاب وراء الانفعال بالدين والحمية، استفاق على وقع الوعي بالهلاك والفناء فصار ينادي بالتسامح والحوار بديلاً عن التعصّب الذي يصنع العدم. فصار التسامح بذلك بوابة تحقيق الوجود. لقد علا صوت العقل أمام مشاهد القتل الدموية، حين تناثرت الجثث وصار الوقعة أشبه بالواقعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث.

النص الجامع: جدلية التعصّب والتسامح:

إن "وقعة صفين" كما نقلها نصر بن مزاحم المنقري، عيّنة من التراث الإسلامي، لا تحمل الحقيقة في بعدها المطلق، وإنّما هي زواية نظر تاريخية ترى الحرب من منظورها، وتحمل بين طيات خطابها موقف صاحبها المتعاطف مع عليّ، وقد تكون وجوه الحقيقة الأخرى غائبة عن النص ولكنّها حاضرة في الواقع، فالكتاب يرصد وقائع الحرب، ولكنّه لا يستطيع النفاذ إلى الفضاءات التي تحتضن الرافضين للحرب والهاربين منها طوعًا أو كراهيّة كالشيوخ إضافة إلى الرافضين للحرب، ولكنّهم بحيادهم صنعوا التسامح وكانوا به فاعلين.

ومع ذلك فإنَّ كل محاولة لإخفاء القميص الملطّخ بالدم، وإظهار الإسلام بعين المتخيّل القدسي، أو ردم تلّ الجماجم واعتباره اجتهاد إلهي صناعةٌ للوهم وتجاهلٌ للموجود، فالحفريّات التي قمنا بها على هذا النصّ لتشريح التعصّب، تهدف إلى الارتقاء بالوعي الإسلامي المفتون بالماضي كي لا يقع في ما وقع فيه أسلافه. فقيمة الإنسان تكمن في إيمانه الراسخ بالحياة في عالم يؤمن بالاختلاف فعلاً، ويتسامح مع المختلفين مهما كان موقعه الحضاري فإذا كان عذر المسلمين الأوائل أنهم فكروا بلغة عصرهم، فلا عذر للإنسان اليوم في أن يصادر حقّ غيره في التفكير أو الحياة، سواء أكان ذلك باسم الإسلام أو باسم الحداثة، فالإنسان يحتاج اليوم أكثر من أيّ وقت مضى إلى التسامح لأنّه فيصل التفرقة بين الوجود والعدم. وقد تبيّنا من خلال العيّنة المدروسة أنّ بناء التعصّب يقوم على تشابك أعصاب متنوّعة، ولكنّها متكاملة، بينما يقوم التسامح على تعطّل وظيفة تلك الأعصاب أو تضاربها، مثل التضارب بين العصب القبلي والسياسي. كما أنّ استنفاد عصب الحرب لطاقته، يؤدّي إلى التسامح وتغليب لغة الحوار، فعصب الحرب كالنار ينطفئ ما لم يجد حطباً، وقد كان شعار "البَقِيَّةِ " سبباً وجوديّاً كافياً لإقناع المتحاربين بالتسامح والكفّ عن القتال.

[53] المرجع نفسه، ص478

قد يبدو اختيارنا للعيّنة غير بريء، لا يرى في الثوب الأبيض سوى النقطة السوداء ولكن في الحقيقة كانت غاية التشريح ضبط مواطن العلّة لنتمكن من اختراع لقاح مضاد للتعصّب، وتنشيط خلايا التسامح. إنّ الجراحة بطبعها لا تتّجه إلى المواطن السليمة من الجسد، فهي تفتّش دوماً في مواطن الداء، ولكن تظلّ غايتها الأسمى استئصال العلّة وتحديد الدواء.

والعيّنة التي خضعت للجراحة والتشريح، تجمع بين سماحة الأخلاق والتشدد في الدفاع على مقدسات القبيلة، وأهمها السيادة وصارت المرجعيات الدينية تضمن للتسامح أرضية في الوقت الذي تضمن فيه شرعيّة لاستعمال العنف المقدس، ولعل الوتر السياسي يظل أكثر الأوتار التي توظف الدين ليقوى صوتها، فتأتلف الأعصاب القبلية والمصالح الاقتصادية بأسماء إسلامية وتصير اللغة وسيلة تمارس قناعاً تيولوجياً للرغبات الباطنية وللعصبيات المؤتلفة، يلعب الخطاب الديني دور الجِلْدِ لتلك الأعصاب حتَّى يضمن لها اللُّحمة الخارجية والوجه المشرق.

أخيراً: يظلّ السؤال المطروح: أين الدواء إذن والجرح لا يزال ينزف؟ لعلّه في ما قاله جمال الدين الأفغاني لشكيب أرسلان: **"إِنّ الوَالِدَ الشَّفِيقَ يَكُونُ مِنْ أَجْهَلِ الجُهَلَاءِ، فَإِذَا مَرِضَ ابْنُهُ اخْتَارَ لَهُ أَحْذَقَ الأَطِبّاءِ، وَعَلِمَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا نَافِعًا هُوَ العِلْمُ لَا يَعْلَمُ هُوَ شَيْئًا مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ بِسَائِقِ حِرْصِهِ عَلَى حَيَاة ابْنِهِ أَنَّهُ ضَرُورِيٌّ."**[54]

[54] شكيب أرسلان، لماذا تأخّر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟، دار المعارف، تونس، ط1، 2006، ص154

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com